بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

هكذا تبدأ السورة[1] الجليلة ؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محَالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

---

(١) سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٧٨٩) : « وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده » . جاء في تفسير أبي السعود بتصرف في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولابد أن يحققه في نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة تدل عن دنُوه واقترابه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] وفيه بلاغة . كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] فعل ماض يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالماضي عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول في الاستعارة التبعية في الأفعال « المنهاج الواضح في البلاغة » .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول ﷺ بما نَزل عليه من آيات الكتاب ؛ أنذرهم فى السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوى ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب فى الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه :

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1] فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

وكذلك قوله الحق :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يهزِم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان ؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها فى الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾ [الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم فى جهنم فى اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١)﴾ [النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذرون به ، كما قال مرة :

---

(١) توفى الله فلاناً : أماته وقبض روحه . ويسند التوفى لله عز وجل ، أو يسند للملَك : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] وقد يُسند التوفِّى إلى الموت نفسه . قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥)﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢/٢٤٧] .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ[1] الْقَمَرُ ①﴾ [القمر]

أى : اقتربتْ ساعة القيامة التى يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لمَنْ كفر ، والجنة لمَنْ آمنَ وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف فى ذاته ، بل مُخيف لِمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ①﴾ [القمر]

قالوا : « فلننتظر قليلاً ؛ فقد يكون ما يُبلّغ به محمد صحيحاً » وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء]

وهذا حديث عن الأمر الذى سيحدث فوْرَ قيام الساعة ، فَهَادنُوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أيْنَ الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ①﴾ [النحل]

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا ؛ بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف فى قوله من بعد ذلك :

﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل]

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المنافقين .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعادَه إلا الله سبحانه ؛ واطمأنّ المسلمون[١] .

وكُلُّ حدث من الأحداث - كما نعلم - يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن ؛ ظرف زمانٍ ؛ وظرْف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعْل مَاضٍ ؛ فظرْفُه كان قبل أن نتكلم ، وفعلٌ مضارع . أى : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إنْ كان مقروناً بـ « س » أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به - وهو الله سبحانه - إنما يُخبرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبر به ، والبشر قد يتكلّمون عن أشياءَ وقعتْ ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البعض .

ولكن المتكلّم هنا هو الحقُّ سبحانه ؛ وهو حين يتكلّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علْمه أبداً ، وهو علم أزَلىٌّ ، وهو قادر على أنْ يأتىَ المستقبل وَفْق ما قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شيء من قبل أنْ يخلقَ ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شيء ؛ فالخَلْق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزَّه فى كل شيء ؛ ولذلك قال :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ .. (١)﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أنْ يوجد الخَلْق ؛ فهو القائل :

---

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٩) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٠) وعزواه لابن عباس رضى الله عنهما .

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[1] (٢٠)﴾ [الأنبياء]

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أي : أنه مُسبَّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١)﴾ [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرّ أبداً ، فهو القائل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

إذن : فقد ثبتتْ له « السُّبْحانية » في ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما ؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً - فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سَبِّح كما سبَّح كُلُّ الكون .

ولقائل أنْ يسألَ : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلّفهم بتكليف تعبُّدي ، ولم تُنزل منهجاً ؛ بل تُحلّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّة الإيمان .

وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشيء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبتَ له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم لم يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ[1] مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحي وتُوضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزلَ منه شيء على أسفل . والمَثلُ الذى أُحبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه :

﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ .. ۝١٥١ ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منِّى التكليفَ الذى نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر ممَّنْ لا هَوىَ له في أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبىّ آمنَّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن

(١) بالروح . أى : بالوحي وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد ، لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩١] .

ودليله السماع ممَّنْ تثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. ②﴾

[النحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً[1] من الملائكة لِيُبلِّغ رُسُله بالوحي من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ㉖ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ㉗﴾

[الأنبياء]

ويقول في آية أخرى :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⑥﴾ [التحريم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكنهم التلقِّي من الأعلى ويبلغون الأدْنى .

---

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشعراء] قال ابن كثير في تفسيره (٣٤٧/٢) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ، وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [النحل]

والآية الإجمالية التى تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِى[1] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّى منه ليُعْطوا المصطفين من الناس ؛ ليُبلّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأدْنى طاقة ليتحمّل ما تتنزّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهْت ذلك بالمُحوّل الذى نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأدْنى من المصابيح ، وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقّى الوحى عبر جبريل عليه السلام « فَضمَّنى حتى بلغ منِّى الجهد » وتفصد[2] جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى »[3] .

---

(١) اصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

(٢) تفصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب - مادة : فصد] .

(٣) زمله بالثوب : لفّه به فتزمل به وتلفف به . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحى ، ذكره الله تعالى للإيناس والملاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٠] . وحديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » من صحيحه « حديث رقم ٣ » من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقة علْوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هى طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحى وتخفّ عنه مثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح]

ثم يفتر[2] الوحى لبعض من الوقت لدرجة أن النبى ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحى وهو مَنْ قال « دثّرونى دثّرونى » ؟

لقد كان فُتور الوحى بسبب أنْ يتعوّد محمد ﷺ على متاعب نُزول الملَك ؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه[3] » .

فينزل قوله سبحانه :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

---

(١) الوزر : همّك الذى أتعبك ، وهو همّ البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشىء : سكن بعد حدّة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

(٣) قلى فلاناً يقليه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] ما أبغضك ولا جفاك . [القاموس القويم ٢/١٣٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردتْ فى القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهى مرَّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أُخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرْقى من الحياة التى نعيش بها ونتحرَّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحسّ والحركة ؛ وروح تُعطى القيم التى تقودنا إلى حياة أخرى أرْقَى من الحياة التى نحياها ؛ حياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمَّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

ويُسمَّى الحق سبحانه الملَك الذى نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أرْقى ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْف أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلِّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. ۝٢ ﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..۝١١ ﴾ [الرعد]

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى :

﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ۝١١ ﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو ما جاء فى الآية الأولى منها :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾ [النحل]

وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدِّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠ ﴾ [النحل]

---

(١) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً ؛ فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً ؛ فهو القائل ﴿ أتَى أمْرُ الله ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أمْر الله ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود ؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله ؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢)﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نفّذته فَوْر صدوره ؛ دون أدْنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء ليُنذروا ؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار فى قوله :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

ونزّه ذاته قائلاً :

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل]

أو : أن الحق يُنبِّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فَفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمَنْ يصطفى .

---

(١) حَقّ له : ثبت له . حُقّت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١٦٤/١] .

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وعُلم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال الحق سبحانه فى ردّه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قسّم بين الخَلْق أرزاقهم فى معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء فى الأمور القِيَميّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحى ، فعليك أنْ تُبلّغهم كلمة الله :

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل]

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِى لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) : « يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . (واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

وفى هـذا حنان مـن الحق عـلى الخَـلْق ، وهو الـحق الذى مـنع الكائنات التى تعجبتْ ورفضتْ كُـفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتمـوهم لرحمتموهم ، دَعُونى وخَلْقى ؛ إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ؛ وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ② ﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجـماعُ التعبُّداتِ التى طلبها الله من خَلْقه ليُنظِّم لهمَ حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكأن :

﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ② ﴾ [النحل]

هى تفـسيـرٌ لمَـا أنزله الله على الملائكـة من الرُّوح التى قُلْنا من قـبل : إنها الروح الثـانية التى يَجـىء بها الوَحْى ؛ وتحـملُ منهجَ الله ليضـمن للْمُعتنق حيـاة لا يزول نَعيمـها ولا المُتنعِّم بها ؛ وهى غَـيْر الروح الأولى التى إذا نفـخها الحق فـى الإنسـان ، فالحـياة تدبّ فـيه حركةً وحِسّاً ولكنها إلى الفناء .

وكان الحق سبـحانه من رحمتـه بخَلْقه أنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيىء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصـدر إلا مِنْ مُحِبٍّ ؛ فسبحانه يُحب خَلْقه ، ويُحب منهم أنْ يكونوا إليه مـخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أَنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبِّب .

فإذا قال لهم ﴿أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. ②﴾ [النحل] فهو يُوضّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بي شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجي الذي يُنظِّم حياتكم وأُجازِي عليه في الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنّي خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الدنيا بلاءً واختباراً ؛ وفي الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر]

وظاهر الأمر أن المُلْك لله في الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً في الدنيا وفي الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب ـ المخلوقة بمشيئته ـ تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت في الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحدٍ غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التي كانت تخضع لمشيئتك في الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها في الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء في الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده[1] ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدِّم لك سبحانه الحيثية التي تُعزِّز أمره بعبادته

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عَبْد وليس كل عبد عابداً ، وقد يَرْقى العبيد إلى مقامات العباد بالعمل الصالح .